نيتشه ومسألة المستقبل

نورالدين الشابي(*)

" أعرفُ مصيري، سيرتبطُ اسمي ذات يوم بذكرى شـــيء فظيـــع، وبأزمة لا قبل للبشر بها، وبصدام بـــين العُقـــول هـــو الأعمـــق، وبإدانة لكل ما اعتقدنا فيه وسعينا إليه وأضفينا عليه قداسة حتى اليوم".

(Nietzsche, Fragments posthumes, XIV, 25 [6], Paris, Gallimard, 1977, p. 379)

استهلال:

لما كانت الفلسفة انهمامًا بمآلات الموجود، فإنه لا غنى لها عن التفكير في مسألة **المستقبل**، وقد يكون **نيتشه** أحد الذين أدركوا ذلك الأمر حينما تبيّن له أن ما كان بصدد الحدوث في عصره لا يمكن أن يفضي مستقبلا سوى إلى "أمر حتمي" هو "**انتصاب العدمية**"، وهو ما يعبّر عنه في نص أساسي يعود إلى سنة 1887 حيث يقول:" **إنني أروي حكاية القرنين القادمين، وأحكي عما هو آت، وعمّا لا يمكنه أن يأتي على هيئة أخرى: انتصاب العدمية (die Heraufkunft des Nihilismus)، وبوسعنا–منذ الآن– كتابة هذه الحكاية لأن الأمر هنا حتمي، فالمستقبل(Zukunft) يكلمنا بواسطة علامات لا حصر لها، وكل ما تبصره أعيننا ينذر بالمصير المحتوم، وقد أضحى سمعُنا حادا بما فيه الكفاية لسماع موسيقى المستقبل هذه، فمنذ زمن تضطربُ حضارتنا الأوروبية بتمامها في عذاب وتوتّر يزدادان حدّة عقدا بعد عقد، لكأن كارثة عُظمى تُوشك على الحلول بها، فهي قلقة، عنيفة، متسرّعة مثلها كمثل السيل الجارف يريد الانتهاء من حركته. إنها لم تعد تراجع نفسها، بل هي تخشى مراجعتها**"[1].

---

*- جامعة تونس.

1-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 11[411], Paris, Gallimard, 1976, p.362

إنّ الحدث الذي يشرفُ **نيتشه** وقوعه إذن هو **انتصاب العدمية،** ولكن ما يسترعي الانتباه حقا في قول نيتشه السّابق طبيعة المفردات التي يستخدمها، وهي في مجملها في علاقة **بالحسّ وبالجسد:** فهو **يحكي** عما هو آت، و**يكتب** هذه الحكاية، و**يستمع** لموسيقى المستقبل الذي يكلمه، وهو **يُبصر** ما ينذر بالمصير المحتوم، أي يبصر علامات دالة على ما سيحدث.

انطلاقا من هذه الملاحظة نوّد أن نسوق الفرضية التالية: في تقديرنا أنه لا يمكن فهم مسألة المستقبل عند **نيتشه** إلا في ضوء تأويلية مخصوصة للعلامات التي يكلمنا عبرها المستقبل وهي علامات منطبعة في الجسد ولا تؤوّل إلا انطلاقا منه، فإذا كان بالإمكان الحديث عن استشراف **نيتشه** للمستقبل على هيئة توقع انتصاب العدمية فإنما يعود ذلك إلى أن **نيتشه** يجعل من "**الجسد**" "**النقطة الأرخميدية**" التي تمكنه من وصل أبعاد الزمان الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، لأن جميع أبعاد الزمان إنما ترتسم على **الجسد**. وينبغي ألا ننسى أن **الجسد**، في تقدير **نيتشه**، هو محل "**إرادة الاقتدار**"، فالغريزة هي المركز المصغّر لتلك الإرادة من جهة ما هي أصل كل معنى وقيمة[1]، وليست حكايةُ المستقبل سوى حكاية الجسد ولعب قواه: إنه **الجسد يحكي حكايته ماضيها وحاضرها ومستقبلها، و في حكي المستقبل لا يفعل الجسدُ سوى رؤية "ذاته" في مرآته.**

إذا صحت هذه الفرضية القائلة إنّ كل قول في الزمان يجد أصله في وضع الجسد الذي يحمل أثر الماضي وعلامات المستقبل فإن كل التصورات التي تتحدث عن خوارق **نيتشية** في استشراف المستقبل تصل حدّ "النبوءة" هي تصورات مجانبة للصواب، لأنها لم تدرك أن **نيتشه لم يكن ليحكي ويكتب إلا ما يراه ويسمعه،** وما لا يقدر غيره على رؤيته وسماعه، وأنه لا يستشرف مستقبل الإنسانية إلا لأنه يُشخّص راهنها، ذاك الذي يدل عليه " الإنسان الأخير" بتعبيره، بمعنى إنسان الإرادة النافية، وهو

1-Gilles Deleuze, ***Nietzsche et la philosophie***, Gallimard, Paris, 1966, p.1

أمر نبّه إليه **زرادشت** إذ قال: "**إنّ من اكتشف بلاد "الإنسان" لم يفُته اكتشافُ بلاد "مستقبل الإنسانية"**"[1].

والحاصل من ذلك أنه لا يمكن فصل استشراف المستقبل من قبل **نيتشه** عن رؤيته للحاضر، فثمة في الحاضر علامات تدل على ما سيحدث مستقبلا، وهو ما يفسر قول **نيتشه**، عند حديثه عن مستقبل التعليم في ألمانيا: "ليس لأحد الحقُّ في الكلام على جهة توقّع **مستقبل** ثقافتنا، والمسألة المرتبطة بها والمتعلّقة بمستقبل وسائلنا ومناهجنا التربوية، إذا لم يستطع أن يُثبت أن هذه الثقافة المستقبلية هي، بمعنى ما، **راهنة**"[2].

لذلك سنسعى إلى اختبار هذه الفرضية باعتماد نظام برهنة تُعبّر عنه بنية الأسئلة التالية:

أولا: أيُّ علاقة بين الفيلسوف وحاضره من منظور **نيتشي؟**

ثانيا: كيف يستشرفُ **نيتشه** المستقبل؟ وبأيّ معنى يمكن الحديث عن "انتصاب العدمية" بما هو حدث مستقبلي؟

ثالثا: هل يحُولُ الحديث عن" انتصاب العدمية" دون إمكانية خلق ثقافة جديدة قوامُها الإثبات؟

I. الفيلسوف و الراهن:

في تقدير **نيتشه** أن "الفيلسوف" الذي يتطلع إلى المستقبل لا يمكنه الانسجام مع عصره: "يبدو لي أكثر فأكثر أن الفيلسوف، من جهة ما هو بالضرورة إنسان الغد وبعده، كان دوما في تناقض مع حاضره، وكان لزاما عليه أن يكون كذلك"[3] . والحقيقة أن انشغال الفيلسوف بحاضره سمة غالبة على تاريخ الفلسفة، فقد كان **لأفلاطون** مثلا موقف نقدي من ديمقراطية عصره، وكان **لكانط** وعي بالراهن تجلّى من خلال سؤالين أساسيين طرحهما هُما : "ماهي الثورة؟" و"ماهي الأنوار؟"، وقد غدت الفلسفة مع **هيقل** " عصرها ملخصا في الفكر" طالما أن مهمتها تتمثل في " تصوّر ما

1-Nietzsche, ***Ainsi parlait Zarathoustra***, III, d'anciennes et de nouvelles tables, §28, Paris, Gallimard, 1971, pp. 234-235

2-Nietzsche, ***Sur l'avenir de nos établissements d'enseignement***, préface, Paris, Gallimard, 1975, p.75

3-Nietzsche, ***Par- delà bien et mal,*** §212, Paris, Gallimard, 1971, p.131

هو كائن" وتلخيصه في شكل "مملكة عقلية"، كما بيّن **فوكو** الحاجة إلى "أنطولوجيا الراهن" تكون بمثابة "أنطولوجيا النحن التاريخية"، أي تفكيرا في شكل وجودنا في العالم. وبالمثل كان **نيتشه** يدرك أنه لا يمكنه أن يكون بمعزل عن معضلات الراهن، "فمن جهة ما نحن منشغلين، لا يائسين، نظل للحظة في عزلة، متفرجين مستغرقين في التفكير في هذه النزاعات والاضطرابات المثقلة بالنتائج، وهي التي كُتب لنا أن نكون شاهدي عيان عليها، ولكن هيهات، إنه سحر كسحر تلك الصراعات التي إن أنت شهدتها كنت طرفا فيها"[1]. لقد كان **نيتشه** إذن شاهدا على عصره أوحاضره، فما هي السمة الغالبة على هذا "الحاضر" ؟

إن حاضر **نيتشه** هو واقع أوروبا الحديثة، ولا يشير لفظ "أوروبا"، عنده، إلى موقع جغرافي بقدر ما يشير إلى ما هو مشترك من القيم، ولذلك كانت أمريكا الشمالية في نظره امتدادًا لأوروبا الجغرافية، وهي بالتالي جزء من نسق القيم الأوروبية. ومن ثمة ندرك أن اعتراض الفيلسوف على حاضره إنما هو اعتراض على قيم الإنسان الأوروبي الحديث، إذ "**ينبغي إخضاع تقدير القيم الأخلاقية ذاته إلى النقد**"[2].

لنقل إذن إن اعتراض الفيلسوف على الحاضر هو اعتراض على سُلّم القيم الذي يسند الثقافة الأوروبية، حيث يتحوّل الفيلسوف، مثلما يأمل **نيتشه**، إلى " طبيب للحضارة"[3]، و"تتمثل مهمته في دراسة مشكلة الصحة العامة لشعب ما ولحقبة تاريخية معينة"[4]، وهو ما يحملنا على السؤال عن علة هذا الربط الذي يقيمه **نيتشه** بين الفلسفة والطب.

يؤكد **نيتشه** على ضرورة وجود تحالف وتعاون بين الفلسفة والفيزيولوجيا والطب، إذ " يجب تحويل العلاقات الحادة والمفعمة بالحذر،

1-Nietzsche, ***La Naissance de la Tragédie***, §15, Paris, Gallimard, 1977, p.109

2-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XII, 9[177], Paris, Gallimard, 1978, p.96

3-Nietzsche, ***Considérations inactuelles***, I, Fragments posthumes, 23[15], Paris, Gallimard, 1990, p.290

4-Nietzsche**, *Le Gai Savoir***, préface, §2, Paris, Gallimard, 1982, p.24

تلك التي تقوم، في الأصل، بين الفلسفة والفيزيولوجيا والطب، إلى علاقة تبادل أفكار تكون الأكثر تعاطفا وإثمارا"[1]. ولعل ما يفسر ضرورة وجود هذا التعاون هو أن مصدر القيم الأول عند **نيتشه** هو الجسد وغرائزه الحيوية سواء كان الجسد مريضا أو معافى، أضف إلى ذلك أن الحياة إرادة اقتدار، وهو ما ينبّه إليه **زرادشت** في قوله: "**حيثما لقيتُ كائنا حيا وجدتُ إرادة الاقتدار ، ووجدتُ في إرادة الخاضع نفسه توقا إلى السيادة**"[2]. ولما كانت إرادة الاقتدار سمة كل كائن حي ونزوعا إلى تنامي المقدرة يجد مركزه المصغر في الغريزة ومن ثمة الجسد، فإن كل خلق للمعنى والقيمة إنما منبعه الجسد، وكل ما هو ذهني ليس سوى اللغة الرمزية للجسد[3] ، وفي أسمى وظائف الفكر لا نجد سوى وظائف عضوية وحاجات فيزيولوجية مُصعّدة[4]. ولعل ما يمكن استخلاصه من ذلك أن التأويل الفلسفي الحقيقي لراهن الإنسان ومستقبله ينبغي له أن يستعين بالطب ويتخذ من الجسد نصا أساسيا له، ولكن ما الذي يمكن "للفيلسوف– الطبيب" أن يُدركه في تشخيصه لحالة الإنسان الحديث؟

ثمة في تقدير **نيتشه** "مرض" و"وهن" أصابا جسد"الإنسان الأخير" كما أصابا إرادته فغدت إرادة نافية للحياة، وذلك هو معنى "الانحطاط"، إذ "ثمة انحطاط في كل ما يخص الإنسان الحديث"[5]. والانحطاط "هبوط في الحياة"[6]، وتراجع للرغبة فيها، وهو واقعة فيزيولوجية لها تبعات على صعيد القيم.

فمن جهة ما أن الانحطاط ظاهرة فيزيولوجية ندرك أن هبوط الحياة، مرض يصيب الجسد، إنه "ضعف في القوى الدفاعية"[7]، وضرب من

1-Nietzsche, ***La généalogie de la morale***, I, §17, Paris, Gallimard, 1971, p.249

2-Nietzsche, ***Ainsi parlait Zarathoustra***, II, De la domination de soi, Paris, Gallimard, 1971, p.133

3-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XII, 1[20], op.cit, p.25

4-Ibid, 1[30], p.27

5-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XI, [223], Paris, Gallimard, 1982, p.225

6-Nietzsche, ***Le Cas Wagner***, §7, Paris, Gallimard, 1974, p.33

7-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIV, 15[31], Paris, Gallimard, 1982,1977, p.192

"الكسل"[1] علامتُه فوضى الغرائز التي يناقض بعضُها بعضا على نحو يفضي إلى غياب التوازن الداخلي بينها، ذلك أن "تنوع الدوافع وتفتّتها وغياب نظام يوفّق بينها عوامل تفضي إلى إرادة ضعيفة"، أما التأليف بينها في ظل دافع موحّد فإنه يعطينا الإرادة المقتدرة. غير أن هذا الوهن في الإرادة والإنهاك الذي يلحق بالغرائز يولّدان حاجة مصطنعة إلى "التهيّج والمنبهات"[2]، وهو ما يفسّر الحاجة إلى الكحول بما هو "كارثة حلّت بتاريخ الانسان الصحي في أوروبا" بتعبير نيتشه[3]، وذلك ما يفسّر أيضا الحاجة إلى"المهيّجات الجنسية"[4]، فكلاهما حاجة مصطنعة لتنبيه إرادة منكهة.

غير أن الانحطاط كظاهرة فيزيولوجية تصيب الجسد يتوازى مع انحطاط القيم، وهو ما تعبّر عنه ثنائية الخير والشر ومفاهيم "الشّفقة" و"الايثار" و"المساواة"، إذ لما كان "العقل لعبة وأداة صغيرة في يد الجسد "، ذلك "العقل الأكبر"، فإن الوهن لن يصيب الجسد فحسب بل سيصيب أيضا القيم فتغدو "معادية للحياة"، وهو ما يفسر كيف أن "الثقافة الألمانية في انحطاط شامل"[5]، رُبّ انحطاط في الثقافة نعثر على آثاره في الفلسفة مثلما نعثر عليها في الأخلاق والدين والفن والسياسة[6].

الحاصل من ذلك إذن أن "الإنسان الأخير" مريض فيزيولوجيا وأخلاقيا، و "الإنسانية فاسدة من زاوية أخلاقية وفيزيولوجية"[7]، حيث "غدا الإنسان المكبّل بأغلال أخطائه نسخة من الإنسان مثيرة للسخرية، إنه كائن

1-Ibid, 15[37], p.194.
وفي تقدير نيتشه أن "الكسل بما هو عجز عن القيام بأي جهد، هو السمة المميزة للانحلال". (المرجع نفسه).

2-Ibid, p.195.

3-Nietzsche, ***La généalogie de la morale***, III, §21, op.cit, p.331 ; Cf aussi *Fragments posthumes*, XIV, 15[80], p.213.

4-Nietzsche, **L'*Antéchrist***, §17, Paris, Gallimard, 1974, p.17.

5-Nietzsche, ***Crépuscule des idoles***, ce qui manque aux Allemands, §4, Paris, Gallimard, 1974, p.102.

6-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIV, 15[101], op.cit, p.221.

7-Ibid, 15[41], p.196.

مريض يُرثى له، غاضب من نفسه، تملؤه الكراهية لكل دافع حيوي، كثير الحذر تجاه كل ما هو جميل وسعيد بالحياة"[1].

تلك هي إذن حصيلة هذا "**التشخيص**" **للراهن** كما يُنجزه "**الفيلسوف –الطبيب**": **ثمّة وهن لحق بالجسد وغرائزه فغدا نافيا لذاته وللحياة**، وثمة "انحطاط" أصاب الثقافة الأوروبية الحديثة في كل مظاهرها على نحو يمكّن **نيتشه** من توقّع "ما هو آت وما لا يمكنه أن يأتي على هيئة أخرى"، لأن **المستقبل ماثل أمامه على هيئة وهن في غرائز الجسد**.

ذلك أمر لا يمكن أن يراه إلا من كان قادرًا مثل **نيتشه** على"سماع" صوت المستقبل، وهو قادر على ذلك لأنه جمع بين أمرين داخل جسده: الأُفول والفجر، النفي والإثبات، الفعل وردّ الفعل، أي بين مظاهر "هبوط الحياة" ومظاهر نموّها، لأنه "آخر الفلاسفة": "آخر الفلاسفة، هكذا أسمي نفسي لأنني آخر الناس"[2]، ولكنه من جهة أخرى "أول فلاسفة العصر، وأشبه ما يكون بحدث مصيري ومُحتّم بين ألفيّتين"[3]. إنه "آخر الفلاسفة" من جهة كونه تعبيرا عن صورة "الإنسان الأخير"، إنسان النفي ورد الفعل، ولكنه "أول الفلاسفة" أيضا لأنه يلقى داخل جسده ما يعبر عن الإثبات والفعل.

ولما كان **نيتشه** قد جمع بين مظاهر هبوط الحياة ومظاهر نموّها فقد كان له من القدره ما مكّنه من أن يرى المستقبل، **لأن المستقبل كان يحيا داخل جسده:** "هو ذا العذاب الذي تحمّلتُه إلى اليوم: لقد بدت لي كل النواميس التي تحكم الحياة في تناقض مع القيم التي تبعا لها يُكابد أناس مثلنا عناء العيش، ولا أخال أن الكثير من الناس على وعي بالشكوى من مثل هذا الوضع، ومع ذلك أوّد أن أجمع الدلائل التي تحملني على الاعتقاد بأنه هاهنا تكمن حقا السّمة الأساسية لعالمنا الحديث ومعضلته المأساوية الحقيقية، والبؤس الخفي الذي هو سبب كل المصائب فيه، **داخلي أنا صار هذا**

1-Ibid, 15[73], pp.211-212

2-Nietzsche, ***Considérations inactuelles***, T.I, fragments posthumes, 19[131], p.212

3-Nietzsche, ***Lettre à Seydlitz***, 12 février 1888.

المشكل واعيا"[1]. ولعل ذلك ما يفسر قوله أيضا: " إنها مناسبة للأوروبيين من أجل امتحان أنفسهم بالنظر في مرآة **فريدريك نيتشه**"[2].

ولذلك ندرك أن المستقبل يجمع في تقدير **نيتشه**، بين أمرين متناقضين: إن ما هو آت وما هو حتمي هو "**انتصاب العدمية**" بما هي فقدان القيم قيمتها، ولكن المستقبل يحمل معه أيضا أملا في ولادة "فلاسفة جدد" يحدّدون للإنسانية غايتها من جديد، ومع هؤلاء تغدو الفلسفة **خلقا لقيم جديدة** هي قيم الإثبات.

II. نيتشه و استشراف المستقبل:

1- انتصاب العدمية:

إن تشخيص **نيتشه** للحاضر على جهة بيان أوجه وهن الإرادة التي تحكم الإنسان الحديث يجعل منه فيلسوفا خلاّقا ومتّجها نحو استشراف المستقبل، وانشاء " نظرة شاملة حول مستقبل أوروبا"[3]، انطلاقا من نقد الحاضر. ولهذا يعتقد **نيتشه** أن مهمته تكمن في أن يهيئ للإنسانية لحظة عودة للذات هي بمثابة لحظة الظهيرة حين تختفي كل الظلال على نحو يمكّن الإنسانية من رؤية ذاتها: "مُهمّتي أن أُعدّ للإنسانية لحظة عودة عليا إلى الذات، ظهيرة كبرى، حيث تُفلت الإنسانية من هيمنة الصدفة والكهنة، وتطرح لأول مرة وعلى نحو كلي، سؤالي لماذا؟**(warum?)** ولأي غاية؟**(wozu?)**"[4].

وإن نحن عمقنا النظر في مدوّنة **نيتشه** نجد أنه قد استشرف بعض الوقائع التاريخية اللاحقة بكثير من الدقة، من ذلك مثلا "**الوحدة الأوروبية**"، حيث يقول: "إن وحدة أوروبا هي الأمر الذي يشغلني وهو ما أراه بصدد الإعداد التدريجي، وإن ببعض التردد، لكن ما يضطرم في العقول ويرتسم فيها كحاجة لوحدة جديدة، تصحبه حقيقة اقتصادية تفسّره: ستصبح الدول الأوروبية الصغرى غير ممكنة اقتصاديا، وذلك بسبب المتطلبات المطلقة

1-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XII, 7[8], p.283
2-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XI, 34[165], p.204
3-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 11[31], p.219
4-Nietzsche, ***Ecce Homo***, Aurore, §2, p.303

للعلاقات الدولية العظمى وللتجارة الكبرى (إن المال وحده هو الذي سيُجبر أوروبا، إن عاجلا أم آجلا، على أن تلتحم في كتلة واحدة)"[1]. ولا حاجة لنا للقول إن التاريخ المعاصر قد أثبت هذا التوقّع، إذ أن المصالح الاقتصادية للدول الأوروبية قد اقتضت توحّدها في قطب اقتصادي ومالي، ولعل ما يفسّر هذا التّوقع بحدوث "وحدة أوروبية" ما عاينه **نيتشه** في حاضره من تفتّت لأوروبا إلى دويلات متنازعة قوميا، وهو تفتت أفضت إليه سياسة أوروبا حينها من جهة ما هي "سياسة صغرى"[2]، قائمة على التنازع العرقي والقومي، وهو أمر يعترض عليه **نيتشه** حين يقول:"لسنا ألمانيين كفاية، بحسب ما يقتضيه معنى عبارة **deutsch** اليوم، حتى نكون مدافعين عن النزعة القومية، وعن الكراهية العنصرية، وحتى نكون مستمتعين بالعدوى القومية التي يسببها تنازع الشعوب الأوروبية فيما بينها"[3]. إن الكراهية القائمة على العرق مظهر من مظاهر وهن الجسد وانحطاط الإرادة وغلبة النفي عليها، ولكن لما كانت القوى داخل الجسد متصارعة فإن انتصار قوى الفعل وإرادة الإثبات تفضي، من ضمن ما تفضي إليه، إلى "وحدة أوروبا"، وهو ما يقتضي وجود "سياسة كبرى" تُنهي كل مظاهر الوهن والضعف الفيزيولوجي. والسياسة الكبرى هي "الانشغال الواعي بالمستقبل الإنساني بتمامه، وهي سياسة تزدري ألاعيب السأسة المعهودين، هؤلاء الذين تُوجههم المشاغل الجزئية"[4].

ومن بين الوقائع التاريخية الأخرى التي استشرفها **نيتشه** "**الملاحة الجوية**": "سيكون ثمة ذات يوم ملاحة جوية"[5]، وسيكون لانتشارها تبعات متصلة "بوجود" الإنسان في العالم وعلاقته بالآخرين على نحو يطرح مشكل

1-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XI, 37[19], p.317
2-Nietzsche, ***Le Gai Savoir***, §377, p.287
3-Ibid, p.286
4-Gilles Deleuze, ***Nietzsche***, Paris, PUF, 1982, p.121
و يعتبر نيتشه أن "السياسة الكبرى" تقتضي تربية الإنسان لتحريره من مظاهر الوهن الفيزيولوجي. ويقتضي ذلك استخدام الفيزيولوجيا، إذ " تجعل السياسة الكبرى من الفيزيولوجيا ملكة لكل المسائل الأخرى. إنها تريد تربية الإنسانية ككل"
(Cf, Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIV, 25[1], p.378)
5-Nietzsche, ***Humain trop humain***, I, §267, Paris, Gallimard, 1988, p.206

الملكية، ذلك أن "اكتشاف الملاحة الجوية أمر يخدم الاشتراكية لأن كل أفكارنا حول ملكية الأرض ستتغير، حيث سيكون الإنسان في كل مكان وفي غير مكان، وسيفقد كل جذور له في الأرض"[1]، ولا شك أن ما يكمن خلف ضبابية العبارة **النيتشية** هنا إنما هي معضلة متصلة بمنزلة الإنسان في العالم وعلاقته بالوسائل التقنية، وهي معضلة نبه إليها على نحو أدق **هيدقير**.

غير أن أهم ما توقعه **نيتشه** هو "**انتصاب العدمية**"،والحقيقة أن لفظ "العدمية" له أكثر من معنى في مدونة **نيتشه**، فثمة "العدمية النافية"، وتعني نفي قيمة الحياة باسم قيم عليا **(أفلاطون** مثلا**)**، وثمة "العدمية السلبية"، وتعني نفي قيمة القيم العليا وقيمة الحياة ذاتها في نفس الوقت، أي فقدان القيم قيمتها جميعا، وثمة "العدمية الناقصة"، وهي استبدال أساس القيم الإلهي بأساس إنساني، إنساني جدا، وثمة أخيرا " العدمية المكتملة" بما هي إرادة تمرّد على سلم القيم السائدة، وإرادة خلق قيم جديدة (وهو المعنى الذي ينطبق على **زرادشت)**[2].

1-Nietzsche, ***Humain trop humain***, I, *Fragments posthumes*, 23[16], p.465.

2 - بالنسبة إلى"العدمية السلبية"، انظر:

Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 9[35], p 28

-و بالنسبة إلى"العدمية الناقصة"، انظر:

Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 10[42], p 126 ;

Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XII, 2[118], p 125

-أما بالنسبة إلى"العدمية المكتملة"، فيمكن الرجوع إلى:

Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 10[43], p 126 ;

Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 10 [42], p 126 ;

Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 10[192], p 202 ;

Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 11[149], p 262

-و بالنسبة إلى العدمية النافية، انظر:

Nietzsche, ***Fragments posthumes,*** XIII, 9[41], p 30

- وهناك كتابات عديدة حول معاني " العدمية" عند نيتشه يمكن الرجوع إليها، منها على سبيل الذكر:

Yannik Beaubatie, ***Le nihilisme et la morale de Nietzsche***, Paris, Découvrir, 1994 ;

إن العدمية التي يبشر **نيتشه** بانتصابها هي " العدمية السلبية" أي فقدان القيم قيمتها، وهو ما يسميه "موت الإله"،ذلك الحدث الذي بدأت نُذره تتّضح على نحو سيفضي إلى تعميم الريبة في نسق القيم الذي سند التاريخ الأوروبي، حيث " يشرع منذ الآن أكبر حدث حديث العهد في بسط ظله على أوروبا– أي أن "الإله قد مات" ، وأن الاعتقاد في الإله المسيحي قد فقدت فيه الثقة. و يبدو فعلا، لبعض النادرين ، على الأقل ، المزودين بشك نفّاذ بما فيه الكفاية، وبنظر جدّ دقيق لرؤية هذا المشهد، أن شمسا قد أفلت، وأن ثقة عميقة قديمة قد تحولت إلى شك"[1]. يعني "موت الإله" إذن تعمق الشك في قيمة القيم التي هي قوام الثقافة الأوروبية، بحيث أن الأمر متعلق بمصير فكر وجّه الإنسانية طيلة قرون، إذ تبدأ "الأصنام" في "الأفول" بفعل الثورات التي رجّت قيم الغرب من ذلك مثلا الثورة العلمية للقرن السابع عشر، "فالانتقال من الدين إلى الرؤية العلمية للأشياء قفزة نوعية"[2]، غيّرت رؤية الإنسان للطبيعة ولنفسه.

الحاصل من ذلك أن سلم القيم الذي وجّه تاريخ الغرب قد رُجّ بفعل تلك التحولات، وهو بصدد التهاوي تدريجيا كي ينتهي مستقبلا إلى الفقدان الكلي للمعنى والغاية، "إن مقولات "الغاية" و"الكينونة"، تلك التي منحنا بفضلها قيمة للعالم، إنما نستعيدها منه فيبدو العالم كما لو أنه فقد كل قيمة"[3]، ذلك أن الإنسانية قد جعلت قديما من فكرة "الإله" قطب الرّحى للفكر والعمل، وبتهاوي هذه الفكرة تجد الانسانية نفسها وجها لوجه مع العدم، و"يتجلى العدم في الوعي بغياب المعنى وفقدان القيم قيمتها، كما يتجلى في النفي

Pierre Héber- Suffrin, ***Le Zarathoustra de Nietzsche***, Paris, PUF, 1992

وهو نص معرّب، انظر:بيار هيبر سوفرين، زرادشت نيتشه، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994.

1- نيتشه، العلم المرح، ترجمة حسان بورقيبة ومحمد الناجي، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 1993، §343 ، ص204 (بتصرف).

2-Nietzsche, ***Humain trop humain***, I, §27, p.13

3-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 11 [99], pp.243-244

والتحطيم واليأس والوهن والشعور بالقلق والخواء، إنه عدم شبيه بالصحراء ذاك الذي تكشف عنه الثقافة الحديثة"[1] .

بإمكاننا القول إذن إن"العدمية هي فقدان الهدف وفقدان الجواب عن سؤال لماذا؟... إنها تعني أن القيم العليا قد فقدت قيمتها"[2]، والحقيقة أن هذه العدمية "مشهد" بصدد التشكل، ولكن لا يمكن أن يتبيّنه سوى " قلة القلة من الناس" بتعبير **نيتشه**، أي هؤلاء المزوّدين "بنظر حاد جدا لرؤية هذا المشهد"، ولقد كان **نيتشه** أحد هؤلاء.

لنقل إذن إن فقدان القيم قيمتها مشهد بصدد التشكل، وبتعبير نيتشه فإن "العدمية على عتبة الباب، ذاك أمر تبيّنه جميع **الأعراض**"[3]، وبالتالي ثمة شيء فظيع بصدد الإعداد، وإن كان بالإمكان تأويل أعراضه ثاوية في الجسد، أي في جسد **نيتشه** وفي أجساد معاصريه. هو ذا ما يقوله **نيتشه** في أحد النصوص المخلّفة:" أعرف مصيري، سيرتبط اسمي ذات يوم بذكرى شيء فظيع، وبأزمة لا قبل للبشر بها، وبصدام بين العقول هو الأعمق، وبإدانة لكل ما اعتقدنا فيه وسعينا إليه وأضفينا عليه قداسة حتى اليوم"[4].

لا نود التخمين في ما يمكن أن يكون هذا "الشيء الفظيع" وهذه "الأزمة التي لا قبل للبشر بها"، ولكن الثابت أن ما حدث إبّان الحربين الكونيتين قد أفضى إلى تعميق الريبة بشأن القيم التي انبنى عليها تاريخ الغرب، ذلك ما يسميه **ليوتار** مثلا "بأفول الثقة في السّرديات الكبرى"[5]، أي أشكال الحكي ذات الغاية التبريرية كالحكي التحرّري في حديه **الهيقلي** و**الماركسي**، إذ لا شيء من قيم الغرب الحديث قد استطاع مثلا منع حدوث واقعة "**أوشفيتس**"(**Auschwitz**)[6]. والحقيقة أن هذه الريبة بشأن قيم الغرب هي التي تعبّر عنها أيضا مشاريع "تفكيك" بنية الميتافيزيقا عند **دريدا**،

1-Léopold Flam, **"Solitude et étrangement de Nietzsche dans la pensée de Heidegger",** ***Nietzsche Aujourd'hui?***, vol. I, Paris, U.G.E, 1973, p.404
2-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIII, 9 [35], pp.28-29
3-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XII, 2[118], p.125
4-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XIV, 25[6], p.379.
5-Jean- François Lyotard, ***le postmoderne expliqué aux enfants***, Paris, Galilée, 1988, 46.
6-هو اسم لأحد المعتقلات النازية لليهود ابان الحرب الكونية الثانية (انظر: المرجع السابق، ص.33)

وأركيولوجيا الميتافيزيقيا عند **فوكو**، وتهاوي مفاهيم "الإنية" و"الهوية" و"التطابق" مثلما عبّرت عنه فلسفات الاختلاف عموما: ثمة إذن أزمة هي أزمة المعنى والقيمة، وهي أزمة لا يمكن التفكير فيها اليوم دون استحضار اسم **نيتشه** ذاك الذي قال:"لا يمكن أن تُوجد آمال وسهام ومسارات يتمّ تعيينها للثقافة إلا انطلاقا مني"[1].

وقد يكون"فلاسفة الاختلاف" اليوم تعبيرا دقيقا عن فكرة انتشار الريبة تجاه مطلقات الميتافيزيقا وقيمها، وهؤلاء هم "أطفال **نيتشه**" بتعبير **ساره كوفمان**"[2]، وقد يكون هؤلاء هم الذين انتظرهم **نيتشه** حين قال:"ينبغي أن ننتظر مجيء نوع جديد من الفلاسفة، فلاسفة لهم أذواق وميول تنحو منحى مضادا لأذواق الفلاسفة الذين سبقوهم وميولهم"[3]، وهؤلاء قادمون: "إني أرى بزوغ هؤلاء الفلاسفة"[4]، ولكن ينبغي أن ندرك أن نوع الفلاسفة الجدد الذين ينتظرهم **نيتشه** لا يكتفون بتقويض سلم القيم السائدة، بل هم يشرّعون أيضا قيما جديدة، ذلك أن "الفلاسفة الحقيقيين حكام ومشرّعون، إنهم يقولون هذا ما ينبغي أن يكون، وهم الذين يحّددون اتجاه الإنسان وغايته"[5].

هؤلاء الفلاسفة الجدد لا يجدهم **نيتشه** من بين معاصريه، حيث "لا أحد يُخضع نفسه لناموس الفلسفة، ولا أحد يحيا حياة الفيلسوف"[6]، لأن حياة الفيلسوف تقتضي عدم الانغماس في السائد والمألوف من القيم، بل إن "الفلسفة كما فهمتُها وعشتها على الدوام، هي الحياة في الثلوج وعلى القمم"[7]. ليس ثمّة لدى الفلاسفة في عصر **نيتشه** ما يمكّنهم من أن يكونوا أحرارا، لأنهم سُجناء قيم القطيع ومجردّ أدوات تستخدمها الدولة، لأن "تحالف الدولة

1-Nietzsche, ***Ecce Homo***, Paris, Gallimard, 1974, p.324.
2-Sarah Kofman, ***Explosion***, tome 2, Les enfants de Nietzsche, Paris, Galilée, 1993.
3-Nietzsche, ***Par- delà bien et mal***, §2, p.23.
4-Ibid.
5-Ibid, §211, p.131
6-Nietzsche, ***Considérations inactuelles***, **II, de l'utilité et des inconvénients de l'histoire,** §5, Paris, Gallimard, 1990, p.124
7-Nietzsche, ***Ecce Homo***, avant propos, §3, p.240

والفلسفة ليس له من معنى إلا إذا وعدت الفلسفة أن تكون خادمة للدولة دون قيد أو شرط، أي أن تضع مصلحة الدولة في موضع أعلى من مطلب الحقيقة"[1]. إنه تحالف بين الفلسفة والدولة بمقتضاه يقبل الفيلسوف التخلي عن مطلب الحرية ويقايضه "بلقمة العيش"، لذلك يرى **نيتشه** أن "هذه الحرية التي تمنحها الدولة لبعض الفلاسفة ليست بالحرية الحقيقية، إذ لا يتعلق الأمر سوى بالفلسفة من أجل كسب لقمة الرزق، بحيث يتوقف تشجيع الدولة للفلسفة على السماح لبعض الأفراد بأن يكسبوا رزقهم بواسطة فلسفتهم"[2]، ومن ثمة فإنه سيكون من الصعب الحديث عن "استقلالية" للفيلسوف لأنه خاضع لمختلف ضروب السلطة، ولأن "كل فعالية فلسفية يهي اليوم فعالية يتحكّم فيها رجال البوليس والسّاسة والحكام والكنائس والأكاديميات والأخلاق"[3].

لا يجد **نيتشه** إذن من بين معاصريه فلاسفة حقيقيين، وهو ما يفسّر قوله إنّ كتاباته لا يمكن أن تُفهم من قبل معاصريه لأنه لا يخاطبهم بقدر ما يخاطب "العقول الحرة"، و"هذه العقول الحرة غير موجودة الآن، وما وُجدت أبدا"[4]،ولذلك كان **نيتشه** ينعتُ فلسفته بأنها "في غير أوانها"(**unzeitgemasse**)، ويقول عن كتابه "**هكذا تكلم زرادشت**" بأنه "كتاب مُخصّص لأقل البشر عددا، وقد لا يكون هؤلاء قد وُلدوا فعلا[...] إن **ما** بعد الغد وحده ملك لي، وبعض الناس يولدون قبل أوانهم"[5]، ولعل ذلك ما يفسّر شعوره بالغُربة بين معاصريه حيث يقول:" نحن أطفال المستقبل، أنّى لنا أن نشعر بالانتماء إلى هذا الزمان"[6]، حيث يُدرك **نيتشه** أنه "لا راهني" وأنه لن يُفهم إلا مستقبلا من قبل اللاحقين عليه، ولذلك" سيحتاج الناس ذات يوم إلى مؤسسات فيها يعيشون ويدرسون وفق رؤيتي للحياة وللتدريس، وقد يُنشئون كراسي

1-Nietzsche, ***Considérations inactuelles***, III, Schopenhauer éducateur, §8, Paris, Gallimard, 1988, p.91
2-Ibid, p.84
3-Nietzsche, ***Considérations inactuelles***, II, de l'utilité et des inconvénients de l'histoire, §5, p.124
4-Nietzsche, ***Humain trop humain***, I, préface, §2, p.23.
5-Nietzsche, ***L'Antéchrist***, avant propos, p.159.
6-Nietzsche, ***Le Gai Savoir***, §377, p.285.

جامعية متخصصة في تأويل كتابي **هكذا تكلم زرادشت**، وسأكون متناقضا كليا إن أنا آمنت بإمكانية أن أجد منذ اليوم **آذانا** و**أيدي** تستطيع تلقُّف حقائقي"[1].

لنقل إذن إن مطلوب **نيتشه** "**آذن**" و"**أيدي**" تتلقف حقائقه: إنه يطلب أجسادا تكون إرادة الاقتدار فيها مثبتة للحياة، فمع هؤلاء تغدو الفلسفة خلقا لقيم جديدة مُثبتة.

2- **فلاسفة المستقبل وخلق قيم جديدة:**

الفلاسفة القادمون هم "فلاسفة المستقبل"، هكذا يسميهم **نيتشه**[2]، وهؤلاء هم "العقول الحرة"[3]، حيث يتساءل **نيتشه:** "أين هي هذه "العقول الحرة"؟ هل توجد بيننا؟ أنظرُ من حولي متسائلا: هل ثمة من يفكر ويشعر مثلما أفعل؟"[4]، ويجيب : "كلا لم أجد أحدا منهم إلى الآن"[5]. والحقيقة أن **نيتشه** يميّز في هذا الصدد بين "المفكرين الأحرار"**(Freidenker)** و"العقول الحرة"**(freie Geister)**[6]، إذ " يوجد الآن، في كل البلدان الأوروبية وحتى في شمال أمريكا، "مفكرون أحرار" فهل يقفون إلى جانبنا؟ كلا أيها السادة، إنكم تريدون نقيض ما يريده هؤلاء الفلاسفة الذين أسميهم فلاسفة مغامرين"[7]، ذلك أن الذي يُسمّون اليوم " مفكرين أحرارا" يظلون سجيني سُلّم سائد للقيم، أما " العقول الحرة" فهي تلك التي تحررت من تلك القيم السائدة وتعمل على خلق قيم جديدة.

والحقيقة أنه ثمة في تقدير **نيتشه** نوعان من الفلاسفة: "هناك أولا الفلاسفة الذين يدعمون حقبة من حقب تطور أحكام القيمة، أي يدعمون مسلمات أكسيولوجية بالية وضروب إنشاء للقيم قديمة (سواء كانت قيما منطقية أوأخلاقية)، وثمة من جهة ثانية فلاسفة يكونون هم أنفسهم مشرّعين

1-Nietzsche, ***Ecce Homo***, pourquoi j'écris de si bons livres, §1, p.276.
2-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XII, 2[32], p.88.
3-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XI, 36[17], p.289.
4-Ibid.
5-Ibid.
6-Nietzsche, ***Par- delà bien et mal***, §44, pp.60-61
7-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XI, 36[17], p.289

في مجال التقييمات. يسعى الصنف الأول من الفلاسفة إلى الاستيلاء على العالم حاضره وماضيه من خلال تجميع المتنوع في الصيرورة وتلخيصه بواسطة علامات، إن ما يشغلهم هو أن يجعلوا الوقائع واضحة، قابلة للفهم والإدراك والتحكم[...] غير أن الفلاسفة الحقيقيين حكام ومشرعون، إنهم يحدّدون ما يجب فعله، ويبدؤون بتعيين معنى الفعل وغايته، ويحدّدون ما ينفع الناس"[1].

والحاصل من ذلك أن "فيلسوف المستقبل" هو "الفيلسوف المشرّع ومُستكشف الإمكانيات الجديدة"[2]، أجل "ينبغي أن يكون الفيلسوف مشرّعا" لقيم جديدة[3]، ومن جهة ما هو مشرّع لتلك القيم ومرتاب بشأن القيم السائدة، فإنه "مشرّع للمستقبل"[4]. هؤلاء إذن هم "فلاسفة المستقبل: إنهم ريبيّون وعقول حرة"[5]، هؤلاء هم "وحدهم ضمانة المستقبل، وهم وحدهم المسؤولون عن البشرية، فمايستطيعون فعله وما يجب عليهم فعله، لا يقدر على فعله مريض وما ينبغي له"[6].

يعني خلق قيم جديدة إنشاء ثقافة جديدة قوامها اثبات الحياة بما هي صيرورة وتنوع وإثبات ما هو حسّي، وذلك مقابل ما أفضت إليه " النزعة العقلانوية" المؤسسة على "غرائز المعرفة" من إقصاء "لغرائز الحياة". إن قوام هذه الثقافة الجديدة للفن في عفويته، وبما هو أداة تحكم في العقل وفي المعرفة النظرية، وبما هو محفّز للحياة وعشق للظاهر والسطح، و"إذا كان

1-Ibid, 38 [13], p.344

ونقرأ أيضا: "بعد أن بحثتُ طويلا عن اللفظ الدقيق الذي ينبغي أن يكون محمولا للفظ "فيلسوف" وجدت أخيرا أنه ثمة نوعان من الفلاسفة:

1 الفلاسفة الذين يسعون إلى تثبيت أمر واقع ذي قيمة هامة

2 الفلاسفة المشرعون الذين يقررون مصير القيم

يحاول الصنف الأول من الفلاسفة أن يكونوا أسيادا للعالم الراهن والعالم الماضي من خلال تلخيص الوقائع بواسطة علامات... غير أن الصنف الثاني من الفلاسفة هم وحدهم الذين يتولون القيادة ويقولون: هكذا ينبغي للأمورأن تكون"

(Nietzsche,***Fragments posthumes***, X,26[407], p.286)

2-Nietzsche**,** ***Fragments posthumes***, XI, 35[45], p.261

3-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XII, 35[47], p.262.

4-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XI, 34[201], p.27.

5-Nietzsche, ***Fragments posthumes***, XII, 35[45], p.262.

6-Nietzsche, ***La Généalogie de la morale***, III, §14, p.314.

علينا أن نعمل على إنجاح ثقافة ما، لا غنى لنا عن وجود قوى فن خارقة لتفتيت غريزة المعرفة اللامحدودة من أجل إعادة خلق وحدة"[1]، هي إذن وحدة المعرفة والفن، وحدة أبولون وديونيزوس مثلما عبرت عنها "التراجيديا الإغريقية" قبل أن يُجهز عليها **سقراط**.

والحقيقة أن **استشراف نيتشه للمستقبل على جهة توقّع ظهور فلاسفة مشرعين لثقافة جديدة إنما يندرج ضمن إعادة قراءته لمنزلة الإغريق في تاريخ الإنسانية**، إذ "ثمة تواطؤ عميق بين إعادة تأويل نيتشه للإغريق ومعنى المستقبل عنده"[2]، ذلك أن الاغريق يمثلون في تقديره أنموذج الحضارة السامية التي ينبغي احياؤها مستقبلا. إنه "تحدّ جذري يرفعه **نيتشه** أمام الانسان الغربي: إما خلق حضارة سامية أو انهيار مدوّ لا سابق له"[3]. إن ما يُكبره **نيتشه** لدى الإغريق احتفاءهم بالظاهر في مقابل غلبة غرائز المعرفة على الانسان المعاصر: لقد أصبح كل شيء لدى الاغريق حياة، أما اليوم فقد غدا كل شيء في وضع معرفة. وعلة ذلك أن هؤلاء "الإغريق كانوا متفقين حول معنى الحياة، وهو ما يستوجبُ وجود طريقة جريئة في الوقوف عند السطح، والاعتقاد في الأشكال والأصوات والكلمات، والاعتقاد في أولمب الظاهرة بتمامه. لقد كانوا سطحيين بعمق. ألسنا نعود إلى هذا الأمر، نحن المفكرون المغامرون، نحن الذين تسلقنا قمة الفكر المعاصر الأكثر ارتفاعا وخطورة من حيث تطلعنا إلى الآفاق ونظرنا إلى الأسفل؟ ألسنا إغريقيين في هذا الشأن؟ ألسنا محبين للأشكال والأصوات والكلمات؟ ألسنا، من ثمة، فنانين؟"[4]. علينا إذن الإنصات إلى صوت الماضي ذاك الذي لا يمكننا فهمه إلا إذا كنا مهندسي المستقبل وعارفين بالحاضر.

1-Nietzsche, ***le livre du philosophe***, Aubier -Flammarion, Paris, 1969, §30, p.44.

2-Dominique Janicaud, **«La Grèce figure de l'avenir»,** ***Nietzsche, Hölderlin et la Grèce***, Les belles lettres, Nice, 1987, p.85.

3-Ibid.

4-Nietzsche***, Le Gai Savoir***, préface à la deuxième édition, §4, p.27.

تلك هي ثقافة الإغريق: إن قوامها الاحتفاء بالحياة وبالسطح وبالعابر من الأشياء، ذلك أن " قوة الاغريق، في نظر **نيتشه**، لا تكمن في تنزيل الانسان في علاقة بالكل وبالمطلق وبالطبيعة، بل تكمن على العكس من ذلك، في الاضطلاع بمنزلة الانسان العابرة وغير اليقينية، وفي القبول بسعادة في الحياة ليس لها من معنى إلا هنا والآن"[1]. إن ثقافة الإغريق توفر بهذا المعنى أنموذج ثقافة سامية ممكنة في المستقبل لأن ما نأمله من المستقبل قد وُجد فعلا في السابق، أي في ماض سحيق يعود إلى ألفي سنة، وطالما أنه قد وُجد فعلا فلا شك أنه ترك فينا وفي حاضرنا أثرا ، فهو كامن فينا وفي أجسادنا دون أن ندرك ذلك. ذلك أن الجسد في الأصل تراتبية قوى، منها الفاعل ومنها الذي يرد الفعل، منها ما يعبر عن إرادة مثبتة للحياة ومنها ما يعبر عن إرادة نافية لها، منها ما هو سيد ومنها ما هو عبد، بحيث أن السيد والعبد يقيمان داخلنا، داخل الجسد فينا، غير أن ما تمظهر منهما لدى الانسان المعاصر أي "الإنسان الأخير" إنما هو العبد، ولكن يظل بالإمكان إحياء السيد داخلنا، يكفي فحسب أن نكون ما نحن عليه. "**صِرْ من تكون**"[2]، تلك هي **المصادرة النيتشية التي تحكم رؤيته للمستقبل**. ذات يوم سنصبح إغريقيين جسديّا، وذلك لأن ديونيزوس مازال كامنا فينا وإن كان خاضعا للتقييمات الأخلاقية النافية للحياة. **ما تشريع المستقبل إذن سوى تحرير ديونيزوس و"الانسان الأرقى" فينا:** "إنني أعلمكم الإنسان الأرقى وما الإنسان إلا شيء ينبغي له مجاوزة ذاته"، هكذا حدث **زرادشت**[3].

إن "الإنسان الأرقى" هو من كانت إرادته مثبتة للحياة ومن كانت قواه فاعلة، "الإنسان الأرقى هو معنى الأرض، فلتقل إرادتكم: ليكن الإنسان الأرقى للأرض معناها"[4]، غير أن "الإنسان الأرقى" ليس كائنا عجائبيا وأسطوريا، بل هو كامن في الإنسان ويولد من رحمه: "أريد أن أُعلّم الناس معنى وجودهم :إنه الإنسان الأرقى، ذلك البرق الذي يسطع من وراء الغيوم

1-Clément Rosset, **«Le modèle grec»,** ***Nietzsche, Hölderlin et la Grèce***, Les belles lettres, Nice, 1987, p.63.
2-Nietzsche, ***Le Gai Savoir***, §270, p.185.
3-Nietzsche, ***Ainsi parlait Zarathoustra***, *prologue*, §3, p.23.
4-Ibid, p.24.

السوداء التي هي الإنسان"[1]، ومن ثمّة **ليس الانسان الأرقى سوى الانسان ذاته وقد تعالى على ذاته وتحرّر من النفي.**

خاتمة:

"صر من تكون"، كن ذلك الإنسان الأرقى الكامن في جسدك، تلك هي الصيغة النيتشية القصوى في رسم السبيل إلى المستقبل على نحو تتقاطع فيه أبعاد الزمان الثلاثة داخل الإنسان وداخل إرادة الاقتدار فينا: ما الزمان إلا صراع القوى داخلنا وتعاقب إخضاع بعضها لبعض، وما "العود الأبدي" سوى قاعدة ايتقية تحفز فينا الإرادة المثبتة: افعل كما لو أنك ستعيد فعلك على نحو لا متناه. افعل بحيث ترغب في الحياة ثانية، إذ "ماذا عساك تقول لو أن شيطانا تسلل يوما أو ليلة حتى داخل وحدتك الأكثر انزواء وقال لك ": هاته الحياة ، مثلما تحياها الآن، ومثلما حييتها، سيلزمك أن تحياها مرة أخرى ومرات لا حصر لها، ولن يكون فيها شيء جديد، سوى أن كل ألم وكل متعة، كل فكرة وكل تأوه وكل ما هو متناه في الصغر وفي الكبر في حياتك لابد أن يعود إليك؟"[2].

ولا شك أنه من اليسير أن نلاحظ أن صيغة الجملة الافتتاحية في القول السابق وردت في شكل فرضية (ماذا عساك تقول **لو؟**) وهو ما يعني أن فكرة العود الأبدي لذات الشيء ليست نظرية كوسمولوجية تعطل كل قول في المستقبل بقدر ما هي قاعدة ايتيقية تخاطبُ فينا الإرادة حتى تكون مثبتة: افعل كما لو كان ثمة عود أبدي لذات الشيء، وهي قاعدة ينبغي أن نصلها بالقاعدة السابقة:" كن ما أنت عليه"، فكلاهما تتصل بإرادة الاقتدار فينا وبفكرة أساسية لدى نيتشه مضمونها أن مجاورة الانسان ذاته فعالية تقتضي انفتاح المستقبل أمامه، وإن كانت "هندسة المستقبل" تقتضي بمعنى ما تشخيص الحاضر والإنصات إلى صوت الماضي. إنها فكرة لا يمكن فهمها في حدود العلم الوضعي، وإنما يستوجب فهمها انتظار ما لا يأتي: انتظار"**علم مرح**" أو **فلسفة** "**قادمة**"**!**

1-Ibid, §7, p.30.

2- نيتشه، العلم المرح، ترجمة حسان بورقيبة ومحمد الناجي، §341 ، ص201 .